Language Art, 8(1): pp. 7-22, 2023, Shiraz, Iran
DOI: 10.22046/LA.2023.01 DOR:
فصلنامه هنر زبان، دوره ۸، شماره۱، سال ۲۰۲۳، از صفحه ۷ تا ۲۲

التنوع اللغوي عند ابن خلدون[۱]

ماوريتسيو بغاتين[۲]©
باحث وعضو هيئة التدريس، قسم اللغات والآداب والثقافات الأجنبية،
جامعة بيرغامو، إيطاليا.

حميد بوروبة[۳]
باحث أول متخصص في علم اللهجات (الديالكتولوجيا)، مركز البحوث الأنثروبولوجية والتاريخية لما قبل التاريخ،
الجزائر.

(Received: 5 May 2022; Accepted: 29 August 2022; Published: 28 February 2023)

مستخلص
في الأقسام الأخيرة من المقدمة، يتناول ابن خلدون بعض القضايا العامة المتعلقة باللغات، ثم يركز على اللغة العربية من خلال كتابة مخطط مختلف عن المخطط الذي يقدمه النحويون عادة. في الواقع، فهي ملزمة بتمثيل ثابت للواقع اللغوي، والذي يشمل في النهاية لغة واحدة فقط، وهي أصول، متناغمة وكاملة، ميزتها المميزة هي الإعراب .أي شيء آخر يعتبرونه مجرد شكل فاسد، همجية لهذه اللغة الواحدة. بدلاً من ذلك، سمح الاهتمام بالتغييرات التاريخية والاجتماعية لابن خلدون بوضع نموذج أكثر ديناميكية يتبنى فكرة الاختلاف، ليس فقط بشكل متزامن، كما هو الحال بالنسبة للنحويين، أيضًا بشكل تاريخي. ضمن هذا النموذج، فكرة الفساد أو اللحن هي مجرد بداية لعملية تحول لغوي أدت إلى ظهور ما لا يقل عن ثلاثة أنواع مستقلة من اللغة العربية، كل منها له سماته الخاصة.

الكلمات الأساسية: مقدمة ابن خلدون، اللغة العربية، التنوع اللغوي، اتصال اللغات، اللغات البدوية والحضرية، العادة اللغوية، الإعراب، الفساد.

---

[۱] هذه المقالة بقلم لماوريتسيو بغاتين (۲۰۱۹). التنوع اللغوي عند ابن خلدون. وقد نُشرت هذه المقالة باللغة الفرنسية في مجلة رومانوعربيكا، XIX (2019)، ۲۰۷-۲۲۲، وقد ترجمها الآن بالعربية حميد بوروبة بالتعاون مع المؤلف. جزء من هذه المقالة قدمت في اليوم الدراسي حول التراث اللغوي العربي التي عقدت في قسم الدراسات الإنسانية لجامعة تورين في ۲۰۱٤/۱۲/۱۸.

© (المؤلف المسؤول) [2]E-mail: maurizio.bagatin@unibg.it
[3]E-mail: bouroubahamid@cnrpah.org

مقدمة

في الجزء الأخير من المقدّمة، أي في الفصل السادس، الذي يُسمى حسب الطبعات الباب السادس أو الفصل السادس، يستعرض ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨ هـ / ١٣٣٢-١٤٠٦ م) العلوم المختلفة التي يزرعها الإنسان، ويفرق بين العلوم الحكيمية الفلسفية، المعروفة أيضًا باسم العلوم العقلية، والعلوم النقلية الوضعية، أي تلك العلوم المتميزة بكونها تقليدية واصطلاحية. العلوم الأولى طبيعية للإنسان الذي يمكن، بفضل إدراكاته وقدرته على التفكير، أن يفهم ويعبّر عن الموضوعات والمشكلات وطرق الدراسة والتعليم لهذه العلوم، التي تشمل المنطق والفيزياء والرياضيات والطب وعلم الفلك، إلخ. أما العلوم التقليدية والاصطلاحية فهي تنبع من الوحي وتعتمد على متن وثيق. لذلك لا تُعتبر نتاجًا للعقل البشري، على الرغم من أن هذا الأخير يُستخدم لربط البيانات والمشكلات المعينة بالمبادئ العامة من خلال التفكير القياسي. هذه المجموعة الثانية تتضمن مختلف العلوم القرآنية بدءا بالتفسير، وعلوم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، وهي أول العلوم التي تناولها الفصل السادس من المقدمة[١].

في الفصل M38/R37 من نفس الفصل[٢]، يخوض ابن خلدون في تقسيم ثان للعلوم فيما بينها: العلوم المقصودة بالذات[٣]، التي تشكل موضوع البحث البشري، والعلوم المساعدة، التي تُعتبر آلة في خدمة الأولى، وتُدرس فقط بناءً على فائدتها. أمثلة الشكل الأول هي، مرة أخرى، التفسير القرآني، وعلوم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، ولكن أيضًا الفلسفة، في فرعيها الفيزيائي والميتافيزيقي، اللذان ينقسمان بدورهما إلى تخصصات مختلفة. أما العلوم المتعلقة بالعربية والحساب فهي آلية بالنسبة للعلوم الشرعية والدينية، كما المنطق أداة بالنسبة للفلسفة. حتى الآن، يبدو أن ابن خلدون يوافق التقاليد، وهو ما نلاحظ أيضًا عندما يعالج أركان اللسان العربي: النحو، علم اللغة، البيان[٤]، والأدب.

أفكار أكثر إثارة للاهتمام وأحيانا حتى تجديدية، على المستوى اللغوي واللغوي الاجتماعي، توجد في بعض أقسام الفصل السادس، التي تسبق أو تتبع الفصل M45/R44 المخصص للتخصصات الأربع المشار إليها في الأعلى وفي بعض الحالات النادرة، أيضًا ضمن هذا الفصل نفسه. وهذا هو الحال بشكل خاص في الفصول التي يقدم فيها المؤرخ ابن خلدون المقاصد المعلقة بالتأليف الأدبي (M35/R33) ويتناول العلاقة بين دراسة مختلف العلوم والأصول العربية أو غير العربية للعلماء (M43/R42)، ويقيم رابطًا بين التعلم واللغة الأم للمتعلم (M44/R43)، ويعرّف اللغة كعادة مكتسبة (M46/R45)، ويعارض لغة أهل الحضر والأمصار بلغة البدو (M48/R47)، ويربط اكتساب العادة اللغوية إلى البعد الجغرافي (M52/R51)، إلخ.

تسمح هاته الصفحات للقارئ بأخذ فكرة دقيقة إلى حد ما عن كيف كان ينظر ابن خلدون، الذي لم يكن عالم اللغويات، إلى اللغات بشكل عام وإلى العربية بشكل خاص، هذه الأخيرة المفهومة وفقا لطبيعتها وخصائصها

---

[١] عن هذا التقسيم الأول أنظر ما كتبه زيد أحمد (Ahmad 2003: 33 ff, 74 ff).

[٢] لأن تقسيم الفصل السادس ليس بالتحديد نفسه في كل مطبوعات المقدمة، المراجع لمختلف الأقسام التي تكونها سيشار إليها من الآن وفقا لترقيم طبعة ١٩٩٥ التي حققها درويش الجويدي، وبهذا الصدد هي مختصرة بالرمز (M) ووفقا لترقيم ترجمة فرانز روزنتال الإنجليزية والمختصرة بالرمز (R).

[٣] ترجم روزنتال (Rosenthal 1967: 298) هذا التعبير بـ "wanted per se".

[٤] ترجمة هذا المصطلح ما زالت تثير إشكالية ضمن المقدمة، حيث تؤدي عدة معاني حسب الاقتضاء. الصعوبة تتعالى عندما يكون في علاقة مع البلاغة التي تشترك في مجال دراسته. اعتمادًا على السياق روزنتال يقترح ترجمة كلمة "البيان" بالتعبيرات التالية: "science of style"، "stylistic precision"، "syntax and style"، "literary criticism". أما مصطلح "البلاغة" فيترجمه بـ "rhetoric" أو "eloquence". وكذلك يهتم علم البيان بالعلاقة بين ما نود إيصاله والطريقة لإيصاله، مثلا عبر ترتيب الكلمات. إلى حد ما يقترب مما يسميه اللسانيون المعاصرون "البرغماتية".

الأساسية وفي العلاقة مع تاريخ الناطقين بها ومجتمعهم. وبكلمات أخرى، نحن أمام عالم يبدو أنه يأخذ في الحسبان التغير التاريخي للغة العربية. من خلال إيلاء اهتمام ما لاستخدام وتكرار بعض المصطلحات، وخاصة التناوب بين "لغة" و"لسان"، سأحاول في هذا المقال وصف ما يمكن أن نسميه الإدراك، إن لم يكن النظرية، للتنوع اللغوي عند ابن خلدون.

الوظيفة والخاصية (الاصطلاحية) للغات

من المستعربين المحدثين، أشار كيز فرستيغ (Versteegh 1997a; 1997b) وبيار لارشي (Larcher 2006; 2007)[1] وجورج بوهاس (Boas 2007) إلى الاهتمام الذي أثارته بعض الأجزاء من الفصل السادس للمقدمة على المستوى التاريخي، اللساني والسوسيولساني.

على وجه الخصوص، يعترف فيرستيج (Versteegh 1997a: 154 ff) بأهمية ابن خلدون كشاهد على موقف العرب اتجاه لغتهم، لكن يحدد الخطاب لمسألة فساد اللغة الأصلية ونتائجها وفي المقام الأول نشأة النحو. النقطة الثانية التي يصر عليها فيرستيج هي عدم اهتمام النحاة بالاختلافات بين لغات القبائل العربية المختلفة، وهي فجوة يربطها بغياب مفهوم التغير التاريخي في التقليد اللغوي العربي (Versteegh 1997a: 158). من ناحية أخرى، يبرز لارشي التمييز الموجود داخل المقدمة بين اللغة الأصلية، التي يسميها المؤرخ التونسي لغة مضار، ولغات البدو العرب في زمنه ولغات أهل الحضر، التي يعترف لها بوضع لغات ذاتية ومستقلة (Larcher 2006; 2007: 119-120). من هذا المنظور، الانتقال من اللغة الأصلية إلى اللغات البدوية المعاصرة، وكذلك إلى اللغات الحضرية، لا ينبغي أن نراه فقط من حيث فساد الأولى، مصحوبًا بعجز المتكلمين عن التعبير بشكل صحيح في لغة أسلافهم. بالرغم من أن يحافظ على فكرة التدهور كسبب أولي أدى إلى التغيير اللغوي، يحدد ابن خلدون كنتيجة لهذه العملية الاستبدال لنحو قائم على الإعراب بنحو قائم على موضع مكونات الخطاب الذي يجب عليه أن يكون أكثر صرامة (Larcher 2006: 429; 2007: 120).

في الصفحات التالية سآخذ اعتبارات فرستيغ ولارشي كمنطلق وسأحاول أن أدمجها بمزيد من التفاصيل والتأملات، حتى يظهر فكر ابن خلدون اللغوي بكل تعقيداته. لهذا الغرض، يبدو لي أن أفضل طريقة للبدء في هذا المجال هي مراجعة التعريفات المختلفة للغة التي يمكننا العثور عليها في الفصل السادس من المقدمة.

في بداية الفصل المخصص للنحو (M45/R44) نقرأ أن اللغة هي "عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني ناشء عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان" (ابن خلدون ١٩٩٥: ٥٤٥). إضافة إلى وصف وظيفة أي لغة، أي التعبير عما يريد إيصاله أو نقله المتحدث، نجد هنا الفكرة، التي تم تطويرها في أقسام أخرى، بأن اللغات هي عادة (ملكة)، يعني قدرة أو استعداد للشخص تقع في جزء محدد من الجسم البشري. وهذه العادة التي سنراها فيما بعد مقارنة بممارسة الفنون، يجب أن تكون راسخة في الفرد، حتى يتمكن من التعبير عن أفكاره من خلالها على أفضل وجه. العلاقة بين ما يعتزم المتكلم إيصاله وتعبيره اللغوي أشير إليها في الجزء السابق (M44/R43) المكرس لمشكلة اكتساب العلوم من قبل الذين لا تعتبر العربية لغتهم الأم.

"واللغات إنما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني، يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم وممارسة البحث بالعلوم لتحصيل ملكتها بطول المران على ذلك. والألفاظ واللغات وسائط وحجب بين

[1] لارشي (Larcher 2006: 425) يشير إلى أن الفصول اللغوية للمقدمة أثارت انتباه القارئ الغربي في بداية القرن التاسع عشر بفضل نشرها وترجمتها الجزئية في أنطولوجيا النحو العربي (*Anthologie grammaticale arabe*) لأنطوان أسحاق سلفاستر دي ساسي (de Sacy 1829: 408-447).

الضمائر، وروابط وختام على المعاني. ولا بد في اقتناص تلك المعاني من ألفاظها بمعرفة دلالاتها اللغوية عليها، وجودة الملكة للناظر فيها، وإلا فيعتاص عليه اقتناصها، زيادة على ما يكون في مباحثها الذهنية من الاعتياص، وإذا كانت ملكته في تلك الدلالات راسخة بحيث تتبادر المعاني إلى ذهنه من تلك الألفاظ عند استعمالها، شأن البديهي و الجبلّي، زال ذاك الحجاب بالجملة بين المعاني والفهم، أو خف" (ابن خلدون ١٩٩٥: ٥٤٤).

القول بأن اللغات ملكة للمتكلم يتكرر في الفصل (M46/R45)، الذي يأتي بعد الفصل الخاص بعلوم العربية ويكون عنوانه "في أن اللغة ملكة صناعية". صفة "الصناعية" التي يترجمها روزنتال بـ "technical"، تحمل معنى "المنشأة" أو "المكونة" أو "الاصطناعية" وبالتالي "المكتسبة" في مقابل "الطبيعية"، وهو تباين أساسي في تفكير ابن خلدون اللغوي. وكما سنرى فيما بعد، هذه نقطة حاسمة لفهم فكرة التنوع اللغوي عند مؤلفنا فيما يتعلق بـأنواع العربية المختلفة. ومع ذلك، نجد في الجزء الأول من هذا الفصل تأكيدات عامة صالحة لجميع اللغات.

"اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع[1]. وهذا هو معنى البلاغة. والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة، ثم يتكرر، فيكون ملكة، أي صفة راسخة" (ابن خلدون ١٩٩٥: ٥٥٤).

وبعد ذلك يبين ابن خلدون كيف يتعلم المتكلم العربي لغته وينقلها، جيلا بعد جيل عبر السماع اليومي والتكرار. ويقارن ذلك المتكلم بالطفل الذي ينشأ في بيئة لا يسكنها سوى متحدثين بنفس اللغة، فيستوعب في البداية الكلمات المفردة، ثم التركيبات المركبة. وعندما يكبر الطفل، يصبح في جميع النواحي مثل هؤلاء المتحدثين. وينطبق الأمر نفسه على غير العرب الذين ولدوا في بيئة ناطقة بالعربية.

"هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال. وهذا معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع، أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم ولم يأخذوها من غيرهم." (ابن خلدون ١٩٩٥: ٥٥٥)

ونلاحظ هنا استخدام مصطلحي "ألسن" و"لغت"، اللذين يعنيان في هذا السياق "لغات محكية"، دون تمييز بين اللغات واللهجات، أو بين المتغيرات فوق اللهجية واللهجات. سنعود إلى ذلك لاحقًا. تكشف الفقرتان الأخيرتان عن الطابع الثقافي للغات، التي اكتسابها واستعمالها عمليتان تتأثران بالبيئة. القدرة على التعبير بلغة معينة، حتى بغاة العرب، ليست واقعة فطرية أو طبيعية، بل هي قدرة تبنى و تكتسب مع مرور الزمن. وكان ابن خلدون قد تحدى الصورة النمطية لشعب يمتلك لغته ويستطيع إتقانها بالطبع في الفصل (M35/R33) بعنوان "في المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف و إلغاء ما سواها"، حيث يتحدث عن التواصل الشفهي والكتابي. فكلاهما حصيلة ما سماه "التواضع"، يعني الاتفاق بين أعضاء الجماعة اللغوية، وإذا اعترفها أحد كأشياء طبيعية، كان ذلك بأسباب غير لغوية، مثل التأثير الثقافي أو السياسي، الأصول القديمة، الانتشار في الفضاء أو خلال الزمن. بعد ذكره لكتابة مضر وكتابة حمير، يقدم ابن خلدون شكلا ثالثا من الكتابة يوفر مناسبة لتوضيح تأملاته عن هذه الموضوع :

[1] نرى هنا انعكاسا لنظرية الخطاب التي صاغها عبد القاهر الجرجاني (٤٠٠-٤٧١ هـ / ١٠٠٩-١٠٧٨ م) وخاصة لما يسميه نظم الكلم. بالنسبة للنحوي والبلاغي من جرجان، وضع الكلمات وتنظيمها في أقوال تتبع ترتيب الأفكار في عقل المتكلم. فعالية الخطاب، وبالتالي إيصال الأفكار، لا تعتمد على اختيار كلمات معينة بشكل منفصل، وإنما على تأليف الكلمات في وحدات مركبة، بحيث أن معاني هاته الكلمات تكون متناغمة داخلها حسب ما تطلبه النفس. للمقارنة (Larkin 1982; 1995: 50 ff).

"وربما يزعم بعض أهل الجهل أنه الخط الطبيعي لقدمه، فإنهم كانوا أقدر الأمم. وهذا وهم ومذهب عامي، لأن الأفعال الاختيارية كلها ليس شيء منها بالطبع، وإنما هو يستمر بالقدم والمران حتى يصير ملكة راسخة، فيظنها المشاهد طبيعية، كما هو رأي كثير من البلداء في اللغة العربية. فيقولون: العرب كانت تعرب بالطبع وتنطق بالطبع، وهذا وهم". (ابن خلدون ١٩٩٥: ٥٢٩)

الفعل الكلامي هو الحصيلة لاختيار، وبالنظر إلى أن هذا الاختيار لا يكون إلا مشتركا - وإلا فلا يمكن التواصل بين المتحدثين - فاللغات طابع اصطلاحي. على الرغم من أن ابن خلدون لا يؤكد ذلك صراحة، فإن إلحاحه على تعريف اللغات كعادة مكتسبة، وقدرة تقنية مشابهة لتلك التي في الفنون، إضافة لوضعه التواصل الكتابي، الذي يخضع لنظام من الرموز التي تم الاتفاق عليها عن طريق التواضع، جنبًا إلى جنب مع التواصل الشفهي، يوصلنا إلى هذه النتيجة.

مسألة الخاصية الاصطلاحية للغات تتصل بالنقاش الفلسفي واللاهوتي حول الأصل الإلهي أو البشري للغة. أثناء فترة زمنية قصيرة نسبيًا منذ القرن التاسع الميلادي، ضم هذا النقاش نحويين وعلماء بفقه اللغة، وخاصة من معتزلية أو من بيئة معتزلية، بالإضافة إلى الفلاسفة واللاهوتيين والفقهاء ومفسري القرآن (Versteegh 1997: 101-114).

من المفهوم أن الاهتمام بأصل اللغة قد تطور في داخل المعتزلة، نظرًا لأهمية مشكلة الطبيعة المخلوقة أو غير المخلوقة للقرآن ولوازمها المختلفة بالنسبة للاهوتهم العقلاني. كما لا ينبغي أن ننسى أن الثقافة العربية الإسلامية اكتسبت من خلال المعتزلة الفكر الفلسفي اليوناني بأدواته البحثية وجزئيا بمواضيعه. المدى الحقيقي لتأثير الفلسفة والمنطق اليونانيين، أو بصفة عامة للفكر اليوناني، في هذا المجال كما في علوم أخرى طورها العرب، قد كان موضوع نقاش واسع، على الرغم من أنه لم يؤد إلى نتيجة نهائية.

ينقسم المتخصصون بين دعاة "الأطروحة الداخلية" ودعاة "الأطروحة الخارجية": يميل أصحاب الأطروحة الأولى إلى اعتبار الثقافة العربية الإسلامية كالميدان التي ولدت وتطورت عليه العلوم اللغوية وعلم الكلام والفلسفة وغيرها، مع الاعتراف بأن الفكر اليوناني هو الذي وفر الأدوات الفكرية لتلك العلوم لتطوير نظرية معرفة (ابستيمولوجيا) حقيقية. أما أنصار الأطروحة الخارجية فيؤكدون على النقيض خضوعا شبه تام للعلوم العربية أمام الثقافة اليونانية، حتى في المجالات الأكثر خصوصية في الفكر العربي الإسلامي، التي تتصل بالخطاب الديني[١].

في دراسة لهنري لوسيل حول أصل اللغة عند النحويين العرب (Loucel 1963-64)[٢] يأتي في الصف الأول ابن جني (٣٢٢-٣٩٢ هـ / ٩٤١-١٠٠٢ م)، الذي خصص لهذه القضية الباب السادس من كتابه "الخصائص" بتسميته "أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح" (ابن جني ١٩٥٢: الجزء الأول، ٤٠-٤٧)، حيث يدعم مصطلحا "إلهام" و"إصطلاح" تباينا بين المجالات الإلهية والبشرية. مستندًا إلى الآية ٣١ من سورة البقرة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾

[١] من الدراسات العديدة حول هذا الموضوع يمكن الإشارة إلى Rundgren 1976، Versteegh 1977، Gutas 1998، Rosenthal 2007 خاصة في الصفحات ١٩٤-٢٣٩.

[٢] وجه نقد إلى هذه الدراسة في عام ١٩٧٠ من قبل محسن مهدي (Mahdi 2007: 137, fn 6)، الذي في رأيه أي نحوي أو فيلولوجي ذكره لوسيل فيها لم يساهم في مباحثة القضية كخبير في النحو أو فقه اللغة (مهما كان معنى ذلك!)، حتى ابن جني، وهو النحوي الذي عالج مشكلة أصل اللغة أكثر من أي عالم آخر وفقا لما كتبه لوسيل (Loucel 1963-64: II, 262-263; Versteegh 1997a: 113). إن نقد مهدي مقبول جزئيًا فقط، إذا أخذنا في الاعتبار نوع التدريب الذي كان يحصل عليه النحويون عادة، وهدف الدراسات اللغوية ودورها بالنسبة للعلوم الأخرى التي تركز على القرآن والأحاديث. من وجهة نظر إسلامية، هذا النوع من الاهتمام كان قد شعر به أولا المتكلمون والفلاسفة والفقهاء، أي أولئك الذين حاولوا تعيين مكانة الإنسان في الكون المخلوق، وجوهره، وامتيازاته وحدوده مقارنةً بالكائنات والخالق.

يحاول ابن جني إثبات من أوجد اللسان البشري من خلال عمله. ولهذا الغرض، يستخدم حججًا مختلفة، بما في ذلك حجج لغوية (ابن جني ١٩٥٢: الجزء الأول، ٤١، ٤٤-٤٥)، فيشارك تارة رأي مؤيدي الأصل بالإلهام، أو بالأحرى بالوحي / بالتوقيف، وتارة أخرى رأي مؤيدي الأصل بالاصطلاح، يعني الوضع أو التواضع. بعد تمحيصه لمختلف الفرضيات ووصوله إلى عناصر مقنعة في كل من الجانبين، لا يقدم ابن جني حكما نهائيا، منتظرا أن تأتيه فكرة تجعله يميل نحو أحد الرأيين (ابن جني ١٩٥٢: الجزء الأول، ٤٧).

الجدل حول الأصل البشري أو الإلهي للغة لا يكون ضمن اهتمامات ابن خلدون ولا يشور إليه في فصول المقدمة التي يعالج فيها اللغة العربية. فهو كمؤرخ مهتم بتطور المجتمع الإنساني وإنتاجاته المتعددة، من المحتمل أن يشعر بأنه قضية عقيمة. وعلى الغرم من أن نفترض أنه يرى اللغة نتيجة اصطلاح بشري، ما يهمه حقا هو كيفية تجسيده في اللغات المختلفة، وكيف هذه الأخيرة تختلف بعضها عن بعض، وما هي الاستراتيجيات التي تعتمدها لتحقيق التواصل، وكيف تتخلّد في الزمن و الفضاء، وكيف تساهم في نقل المعرفة. قد نذهب إلى افتراض اعتباره اللغة كنتيجة لعقد إنساني. والكيفية التي تجسد بها في اللغات المتعددة، كيف تختلف اللغات عن غيرها، ماهي الاستراتيجية التي تتبناها هاته اللغات لتحقيق التواصل، كيف تدوم في الزمن والفضاء وكيف تسهم في نقل المعرفة.

أنواع اللغة العربية

في دراسته للغة العربية، يشير ابن خلدون إلى أربعة أنواع أو نماذج أساسية للعربية:

- اللغة الأصلية والصافية المسماة لغة مضر (من اسم أحد ابني نزار بن معد بن عدنان، وهو الجد المشترك لمعظم القبائل العربية الشمالية)[١]
- لغة القبائل البدوية القديمة ذات عادة لغوية مختلفة عن لغة مضر
- اللغة التي تتحدث بها القبائل البدوية في عصره
- لغة المجتمعات المستقرة.

في هذا التمثيل للتنوع اللغوي، نجد أحيانًا تمايزات ثانوية، على الصعيد جغرافي (المغرب العربي مقابل المشرق العربي) والسوسيولوجي (لغات أهل الحضر مقابل لغات من أهل الأمصار).

في نظر ابن خلدون، لغة مضر (أو اللسان المضري) ليست نموذجا لسانيا مجردا فقط، أو نموذجا أصليا مثاليا، بل كانت لها مظاهر مجسدة بقيت شواهدها التاريخية. إنها لغة بعض القبائل البدوية في الماضي بسبب أصلها من سلف مشترك، وهي أيضًا لغة القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وكذلك لغة الشعر والنثر في عصر الجاهلية. لهذا الصنف من العربية خاصيتان رئيسيتان: الإعراب والاشتقاق، مما يسمح بالتعبير عن معانٍ معينة بدون الحاجة إلى اللجوء إلى كلمات جديدة، مغاير لما يحدث في اللغات الأخرى (ابن خلدون ١٩٩٥: 545). بالإضافة إلى ذلك، يميز الإعراب هذا النوع من العربية عن الأنواع الأخرى.

---

[١] انظر مدخل "ربيعة ومضر" لكندرمان (Kindermann) في موسوعة الإسلام:

Kindermann, H., "Rabīʿa and Muḍar", in: Encyclopaedia of Islam, Second Edition, Edited by: P. Bearman, Th. Bianquis, C.E. Bosworth, E. van Donzel, W.P. Heinrichs. Consulted online on 01 April 2018 http://dx.doi.org.ezproxy.unibg.it:2048/10.1163/1573-3912_islam_COM_0895. First published online: 2012.

حول استخدام هذا المصطلح، انظر ما كتبه لارشي (Larcher 2006: 427-428).

من هذه الاعتبارات الأولية، من الواضح أن ابن خلدون يعتبر لغة مُضر تمثل ما يسميه المستعربون "العربية الكلاسيكية" بمعنى "العربية الفصحى"، مع أن هذا التعبيرالأخير لا يظهر أبداً في المقدمة. كما أنها اللغة المستخدمة في التعليم وتأليف الأعمال العلمية، والتي يجب على كل الباحثين معرفتها من أجل التعامل مع الأفكار واكتساب المعرفة في أي مجال. وأخيراً، هي النوع من العربية الذي، منذ حين معين من التاريخ، خضع لعملية التدوين، وبالتالي أصبح موضوع الدراسة في مختلف التخصصات اللغوية.

في إعادة البناء "التاريخي" التي يقدمها ابن خلدون، يُفترض أن هذه اللغة كانت تتحدث بها بعض القبائل من المنطقة الوسطى الغربية من شبه الجزيرة العربية (الحجاز) المنحدرة من عرب الشمال عبر الجد المشترك مُضر وأبنائه. ولكن لماذا فقط بعض القبائل وليس جميعها؟ الإبانة هي التي تبناها النحاة العرب تقليدياً في الماضي، وهو الفساد بسبب المخالطة. كنتيجة للتوسع الإسلامي، التقى عرب الحجاز بشعوب يتحدثون لغات أخرى والذين، في محاولة للتحدث بالعربية، خلطوا عادتهم اللغوية مع عادة الفاتحين وبالتالي ارتكبوا العديد من الألحان وأنشؤوا أشكال لغوية هجينة. مع مرور الوقت، كانت مثل هذه الألحان والأشكال الهجينة قد دخلت في استخدام العرب أنفسهم، مما أدى إلى ولادة عادة لغوية جديدة مختلفة عن العادة الأصلية (ابن خلدون ١٩٩٥: ٥٤٦، ٥٥٥، ٥٥٨)[١]. إلى حد متغير، كان من المفترض أن هذه الظاهرة قد أثرت على الغالبية العظمى من القبائل العربية. ومع ذلك، فإن العزلة الجغرافية الكبرى لبعض القبائل، فضلا عن أسلوب حياتها البدوية ، كانت ستشكل بالنسبة لجماعات معينة، لا سيما القريشية، حاجزا ضد دخول الأشكال المتغيرة والتدهور اللغوي الناتج عنها. وهذا هو السبب في أن جميع القبائل العربية القديمة لم تحتفظ بنفس درجة النقاء أو الصفاء في طريقة التعبير عن نفسها، وبالتالي، فإنها تحدثت لغات مختلفة[٢].

بيير لارشي، الذي كان مهتماً بتحديد مصدر إعادة البناء هذه، قد وجد في كتاب الحروف للفارابي (٢٦٠-٣٣٩ هـ / ٨٧٤-٩٥٠ م) الفكرة الواقعة تحت هذا الاستدلال، وهذا بعد استبعاد فرضية أن يكون ابن فارس (٣٢٩-٣٩٥ هـ / ٩٤١-١٠٠٤ م) قد أثر على فكر ابن خلدون ولا سيما بمصنفه "الصاحبي في فقه اللغة العربية" (Larcher 2006: 428)[٣]. وخلاصة القول أن الفرابي يؤكد أنه على أساس المبدأ القائل بأن أنقى اللغات هي التي يتكلم بها سكان الجهة الداخلية من إقليم معين، ومن بينهم سكان المناطق غير الحضرية، فإن أفضل الناطقين باللغة العربية يجب

[١] أما الفصول التي يتم فيها تناول هذا الموضوع فهي تلك حول النحو (M45/R44)، واللغة كعادة مكتسبة (M46/R45)، ولغة الحضر والأمصار (M48/R47). في بعض الحالات، يكون تكرار المفهوم نفسه وظيفيًا في تطوير الخطاب، وفي حالات أخرى يكون مجرد تكرار. كما لاحظه باحثون آخرون، يدفعنا ذلك إلى الاعتقاد بأن الصفحات التي تشكل المقدمة قد كتبت في مناسبات مختلفة (محاضرات؟ قراءات عامة؟) فتم جمعها في مجلد لاحقا.

[٢] في رأي المترجم: [لغة قريش حافظت على صفائها باعتبارها بعيدة جغرافيا عن هاته الأمم المذكورة آنفا و كانت أفصح اللغات العربية].

[٣] يشير لارشي إلى كتاب ابن فارس بقضية اصطلاحية متعلقة باسم اللغة الأصل. كما نعرف، يسميها ابن خلدون "لغة مضر"، وهي عبارة استعملت في " الصاحبي" في صيغة الجمع (لغات مضر)، ولكنه لا يعطي أبدا تعريف "اللغة الفصحى". في مكانه يستعمل عبارة مشابهة، ما جعل لارشي يعتقد أنها مصدر لهذه الأخيرة، أي "كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها" (ابن خلدون ١٩٩٥: ٥٥٥). يقارن لارشي هذه العبارة مع تلك التي نجدها في "الصاحبي" دائما حول لغة قريش: "أجمع علماءنا بالكلام العربي... أن قريشا أفصح العرب ألسنة وأفصحهم لغة" (ابن فارس ١٩٩٧: ٢٨).

أن يضعوا في وسط شبه الجزيرة العربية (الفرابي ١٩٩٠: ١٤٦-١٤٧)[١]. نجد نفس الفكرة عند ابن خلدون عندما يؤكد أن "البعد عن اللسان [الأول] إنما هو بمخالطة العجمة فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد" (ابن خلدون ١٩٩٥: ٥٥٨).

وفقا للنظر التقليدي استمرت عملية الفساد كناتجة عن الاتصال بالشعوب الأجنبية مع ضم أقاليم جديدة إلى الخلافة. وأصبح المجتمع الإسلامي أكثر تعقيدا مع تزايد عدد المراكز الحضرية التي تعمل عمل أقطاب سياسية وإدارية وثقافية، ومع تزايد ببنية ديمغرافية غير متجانسة. فكانت لغة مضر القديمة في خطر الانقراض، ومعها إمكانية الفهم الكامل والصحيح لنص الوحي والحديث النبوي. لذلك كان من الضروري المحافظة على هذا النوع اللغوي من خلال وضع معجمها، وبنيتها، والقواعد الصرفية والنحوية التي تحكم استعمالها. بكلمات أخرى، كان يجب تزويدها بنحو، وهو علم تطورعند العرب لتلبية هذه الحاجة في رأي ابن خلدون. على وجه الخصوص، ركز النحاة الأوائل على وظيفة الإعراب وآثاره الدلالية[٢] والبراغماتية إذا جاز التعبير، بينما اهتم المعجميون بالحفاظ على استخدام الكلمات وفقا لمعانيها الخاصة[٣]. لحصول على هذا الهدف، بالإضافة إلى الوثائق النصية، كان عليهم استجواب المخبرين الذين يمكنهم تقديم الإجابات التي يحتاجونها. وللأسباب المبينة أعلاه، كان على هؤلاء المخبرين أن ينتموا إلى تلك القبائل البدوية أو شبه البدوية التي حافظت على درجة ما من العزلة على مر الزمن.

من الواضح أن الاهتمام بهذا النوع من اللغة العربية له دافع أيديولوجي، بسبب المكانة الاجتماعية التي تم الاعتراف بها على أنها لغة النصوص في قاعدة الحضارة العربية الإسلامية. ولم يقتصر الشعور بخسارتها أو تغيرها على التشكيك في قدرة أولئك الذين يريدون الاستمرار في قراءتها وفهمها، بل قوض نظام القيم المرتبطة بها. ويبدو أن ابن خلدون كان يدرك هذه الحقيقة جيدا:

"إلا أن العناية بلسان مضر، من أجل الشريعة كما قلناه، حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء، وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا إليه" (ابن خلدون ١٩٩٥: ٥٥٧).

إن استخدام كلمة "فساد" الازدرائية، الذي اخترعها النحاة العرب في القرون الماضية لوصف الانتفاء التدريجي للإعراب، وكذلك الفكرة المتعلقة بلغة تعبر عن قصد المتكلم بشكل أفضل من غيرها، له ما يفسره من أسباب أيديولوجية أكثر منها لغوية. أما ابن خلدون، الذي طور تفكيره ابتداءا من التراث النحوي السابق، فيبدو قادرا على انتقاده وتجاوزه، باستبدال مفهوم الفساد بمفهومي التحول والتنوع اللغوي. في هذا الصدد، في الفصل (M47/R46) المسمى"في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة ومغايرة للغة مضر ولغة حمير" يصرح أن العربية المعاصرة تعرف، وبالتالي تستعمل، نفس الوسائل التعبيرية التي كانت تعرفها لغة مضر إلا أواخرة الكلمات المميزة للفاعل

---

[١] يسيرسليمان (Suleiman 2011: 7) يقتبس فقرة من كتاب "الاقتراح في أصول النحو" لجلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١ هـ / ١٤٤٥-١٥٠٥ م)، وفيه يعود السيوطي للفارابي وقائمته للقبائل التي لم يعتبرها أوائل النحاة العرب مصدراً موثوقاً في البحث عن البيانات اللغوية، بسبب وجود عناصر الأجنبية في كلامها (السيوطي ٢٠٠٦: ٤٧-٤٨).

[٢] من الجدير بالذكر أنه في التراث النحوي العربي ليس الإعراب حقيقة نحوية بحتة، ولكنه يعبر عن القيم الدلالية التي تظهر من خلال أواخر الكلمات عندما يتم إدخال مفرد معين في الكلام (Bohas-Guillaume-Kouloughli 1990: 54-55). بالنسبة إلى العلاقة بين العوامل النحوية والإعراب والتغير في المعنى، انظر في كتابي (Bagatin 2018: 90-92) حيث يناقش هذا الموضوع استنادا إلى بعض الإفادات المأخوذة من كتاب "المقتصد في شرح الإيضاح"، وهو شرح عبد القاهر الجرجاني على كتاب "الإيضاح" لأبي علي الفارسي (٣٧٧-٢٨٨ هـ / 901-987 م)، الذي كان من تلاميذه ابن جني.

[٣] في بداية الفصل المتعلق بعلم اللغة يعني العلم المعجمي، ذكر ابن خلدون أن عملية فساد العادة اللغوية لم تؤثر على وظيفة الإعراب، بل أثرت أيضا على قدرة المتكلم على استخدام الكلمات والجمل وفقا لمعانيها الأصلية (ابن خلدون ١٩٩٥: ٥٤٧)

عن المفعول به، يعني حركات الإعراب. بدلاً من ذلك، يستخدم المتكلم للإشارة إلى معاني معينة موقع الكلمات[١] في الجملة والعلاقات النحوية (ابن خلدون ١٩٩٥: ٥٥٥).

بعض التوضيحات ضرورية فورا. بادئ ذي بدء، فإن "عرب اليوم" الذين يشير إليهم ابن خلدون ليسوا سكان المدن، بل أعضاء القبائل البدوية. تتضح هذه الفكرة أكثر فأكثر باستمرار القراءة، ولا سيما للفصل التالي المخصص صراحةً للغة التي يتحدث بها السكان في المدن. ثانيا المرجع إلى لغة حمير، وهي لغة من لغات المنطقة في جنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن) لا تنتمي إلى مجموعة اللغات العربية الجنوبية القديمة، مبرر بالاعتقاد الخاطئ بأنه بينها وبين لغة مضر يمكننا أن نرى نفس العلاقة التي تربط هذا الأخير بالعربية البدوية المعاصرة. سيكون من المثير للاهتمام اكتشاف أصل هذه القناعة، ولكن وراء المقارنة المؤسفة (Larcher 2006: 431)، يجب أن ندرك فيها نظر جديد للبيانات، أي فكرة التغير الزمني الذي أدى إلى تكوين أصناف لغوية متميزة ومستقلة، وهو تحول بحيث لا يكون صحيحا ولا ممكنا تطبيق قواعد صنف على آخر (ابن خلدون ١٩٩٥: ٥٥٦).

في المقارنة بين اللسان المضري والعربية المتحدث بها من طرف القبائل البدوية في عصر مؤلفنا، الفرق الوحيد ذي الصلة إذن هو حضور أو غياب الإعراب. أما بنسبة الباقي فيشارك النوعان في القدرة على التعبير عما يريد المتكلم إصاله على وجه واضح ومناسب لحاجاته:[٢]

"ما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب و مذهبهم لهذا العهد. ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت، وأن اللسان العربي فسد، اعتبارا بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه [...] والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه يتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد [...] ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط [...]

ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه، نعتاض عن الحركات الإعرابية (التي فسدت) في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه؛ فتكون لها قوانين تخصها. ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر، فليست اللغات و ملكاتها مجانا" (ابن خلدون ١٩٩٥: 556).

إن النبرة الجدلية اتجاه النحويين المحترفين لتضع المزيد من الأدلة على أن ضياع الإعراب لم يعق أو يقلل نطاق الإمكانيات التعبيرية. الفساد التدريجي للإعراب كان سيؤدي إلى نشأة نوع جديد من العربية وهو مزود بوسائل ذاتية لتعويض هذا الاختفاء. حتى أن ابن خلدون ذهب إلى حد افتراض ضرب آخر من الإعراب للنوع الجديد، ومع ذلك بقيت هذه الفرضية بدون تدقيق، ببساطة لأن النحويين لم يهتموا بالوضعية اللغوية لذلك العهد. على أي حال، بين سطور الاقتباس الأخير، هناك حقيقة أخرى تستحق الذكر فيما يخص الرؤية الخلدونية للتنوع اللغوي. هي استعمال مصطلحي "لغة" و"لسان"، لاسيما بشأن "أحوال اللسان المدون" و"هذا اللسان العربي لهذا العهد". هذا الاستعمال الذي يتم هنا كما في مقاطع أخرى لنفس الفصل، تقترح إشارة دلالية معينة لمصطلح "لسان" في مقابل مصطلح "لغة" والتي سنعود إليها في الخاتمة.

---

[١] يقول ابن خلدون "بالتقديم والتأخير". فمن المحتمل أنه يلمح فقط إلى ترتيب مكونات الخطاب الذي يصبح بالضرورة أكثر جموداً في غياب الإعراب، وليس إلى مفهوم "الانخلاع" بالمعنى المتداول في البرجماطية.

[٢] هذا القول يتناقض في الواقع مع كلمات ابن خلدون في بداية الفصل، حيث يؤكد أن فصاحة لغة مضر وبيانها متفوقان.

الجزء الأخير، وهو طويل نسبياً، من هذا الفصل يتناول نطقا خاصا لصوت "القاف" يأخذه ابن خلدون كعلامة مشتركة للعربية التي يتحدث بها كل القبائل البدوية في عصره. وحول هذا الموضوع نجد إشارة في مقالة لارشي (Larcher 2007: 429-430).

المسافة بين لغة مضر القديمة ولغة سكان الحضر والمدن الكبيرة أكثر وضوحاً كما هو يشرق في الفصل اللاحق (M48/R47)، الذي عنوانه "في أن لغة الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر". المجتمعات المستقرة، خاصة مجتمعات الأمصار، هي أكثر استقبالا للتأثير الخارج بسبب لقاءها مع شعوب ذات أصول متعددة، فلذلك يسجل فيها أكبر تنوع لغوي، ناتج عن اختلاط العادات اللغوية المختلفة. هذا مبدأ عام، والدليل على ذلك أن ابن خلدون، على عكس الفصل السابق، لا يحدد الخطاب في زمانه فقط. عربية الحضر لا تختلف فقط عن اللسان المضري، ولكن كذلك عن لغة القبائل البدوية المعاصرة، مما يجعلها نوعا قائما بذاته و منفصل تماما، بينما النوعان الآخران، رغم الاختلافات الناتجة عن اختفاء الإعراب، مرتبطان بعلاقة قرابة.

أما بالنسبة لغة أهل الحضر، فيؤكد أخيراً ابن خلدون صربا آخر من التنوع يظهر في داخل هذا النوع اللغوي. فلهجة المدن الشرقية تختلف عن لهجة المدن الغربية وتختلف كلتاهما عن لهجة المدن الأندلسية. هذا التمايز يعتمد على الشعوب التي تواصل معها العرب في الأراضي التي تأثرت بالفتح الإسلامي: الفرس والترك في المشرق، البربر في إفريقيا الشمالية والمغرب، الجلالقة والإفرنج في الأندلس. نتائج الاتصال اللغوي ستكون مختلفة حسب المناطق؛ ففي إفريقيا الشمالية والمغرب، غلبة العنصر البربري حددت النوع الأبعد عن لغة لمضر الأصلية. بالرغم من الاختلافات، فإن كل من هذه الأنواع وضع على نفس المستوى من حيث قدرته على التعبير عما يريد أن يوصله المتكلم:

"وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه وهذا معنى اللسان واللغة" (ابن خلدون ۱۹۹۵: ۵۵۸).

خاتمة

في الصفحات السابقة حاولت أن أصف الخطوط الأساسية التفكير اللغوي لابن خلدون، مؤكدا على علامات الاستمرارية ونقاط القطيعة أمام التراث اللغوي والنحوي السابق. انطلاقا من السؤال الأساسي المتعلق بماهية اللغة ووظائفها، مع نبذة مختصرة حول أصل اللغة البشرية، ركزت الخطاب أخيرًا على مفهوم التنوع اللغوي، كما يظهر في بعض الفصول من الباب السادس من المقدمة. والمفتاح تأويل كل هذه المادة يقدمه ابن خلدون نفسه: بما أن اللغة مظهر من مظاهر المجتمع البشري، فإنها تخضع لنفس قوانين التغير التاريخي التي تخضع لها جميع مظاهره الأخرى واللغة العربية ليست استثناءً من ذلك.

فيما يلي إعادة البناء لابن خلدون بصفة تخطيطية، وهو ملاحظ دقيق للتطور التاريخي والاجتماعي.

١. في الأصل كان لغة مضر التي تعتبر صافة، أي غير فاسدة، لأنها لم تتصل بعناصر أجنبية بعد.
٢. تتميز هذه اللغة بمميزات (الإعراب والاشتقاق بالإلحاق) تجعلها واضحة وفصيحة بشكل خاص. من المعتقد أن المتحدثين بها يتقنونها بعفوية تامة، كما لو كانوا يتمتعون بموهبة فطرية، ولكنها بالنسبة لهم أيضًا عادة مكتسبة عن طريق الاستماع والتكرار المستمر.
٣. حافظت لغة مضر على خصائصها فقط بين المتحدثين من بعض القبائل البدوية، بمقتضى العزلة الجغرافية التي تميزها. أما في المناطق الحدودية فبدأت عملية التحول (فساد الإعراب).

٤. منذ القرن السابع وبفضل القريشيين، أصبحت هذه اللغة، التي كانت سابقا وسيلة تعبير عن مجموعة هامة من الإنتاج الشعري، وسيلة الوحي القرآني والحديث النبوي اللذان سيقوم عليهما الحضارة العربية الإسلامية الجديدة.

٥. في داخل الخليفة، وخاصة في المناطق الحضرية، أدت عملية التحول اللغوي إلى نشأة أنواع جديدة، بعيدة إلى حد ما عن اللغة الأصلية. تناقص المتحدثون الذين يستطيعون فهم لغة مضر القديمة، وقبل كل شيء توفير المعلومات عن التفسير الصحيح للآيات القرآنية، إلى درجة الانقراض.

٦. فصارت من اللازم دراسة بنية اللغة القرآنية وضع قواعدها النحوية. منذ ذالك الحين انكب التراث اللغوي العربي على نظر في هذا النوع من العربية وتحديد جميع جوانبه، مع الحفاظ عليه من تحولات التطور التاريخي.

٧. أما الأنواع الأخرى من البدوية والحضرية، فعلى الرغم من أنها طورت قواعدها وإمكانياتها التعبيرية الخاصة بها، فإن النحاة لم يأخذوها بعين الاعتبار وجعلوها موضوع دراستهم.

ثمة فكرة ظلت كامنة ضمنيا في سياق عملية إعادة البناء هذه. فجرى تدوين لغة مضر عندما كان المتحدثون بها على وشك الإضمحلال. فيبدو أن ابن خلدون يقول لنا إن هذا النوع من العربية منذ لحظة معينة لم يعد اللغة الأم لأحد، ولا يمكن اكتسابه إلا عن الطريق التعليم، كما هو الشأن لكل القدرات القابلة للمقارنة بالفنون. اكتسابها مفروض على كل شخص يريد أن يتعامل مع المعرفة ، في المجال الديني كما في غيره، لأن تأليف الأعمال الأدبية يقوم حصرا بهذه اللغة. الفجوة إذن ليست فقط بين المتحدثين من مختلف أنواع لغوية، بل أيضا بين اللغة الشفوية واللغة المكتوبة داخل مجتمع المتكلمين نفسه.

ما هي النتائج التي يمكننا استخلاصها من الدرس الخلدوني؟ بإجابة مختصرة وجافة، قد نقول إن الخطاب حول اللغة في المقدمة يظهركإعادة الصياغة لنظريات تقليدية ممزوجة بعناصر مبتكرة يمكن تحديد هذه الأخيرة خصوصاً في طريقة وصف التنوّع اللغوي. فمن ناحية لا يزال ابن خلدون يستخدم القوالب النمطية القديمة مثل التفوق / التدني اللغوي والفساد، فإنه من ناحية أخرى يخضعها للنسبية ويقيّد تطبيقها بجوانب وظواهر محدودة. وفي التحليل النهائي، يرى مساواة جوهرية بين اللغات من حيث قدرتها على التعبير بشكل صحيح عمّا يُراد إيصاله. فالنتيجة هي تقليص لمبدأ ما يُعرف بحكمة العرب،والذي بموجبه تنتقل خصائص اللغة إلى المتكلمين بها (أي أن التفوق اللغوي يفسر تفوق العرب كشعب). على الرغم من أنه لم يذكر صراحة (لا توجد عبارة "حكمة العرب" في المقدمة)، فإن هذا المبدأ مرتبط بفكرة نقاء اللغة ودقتها، التي يتحدث عنها ابن خلدون بإسهاب. فإنها مفاهيم لعبت دورا أساسيا في الإيديولوجيا التي كانت في جذر عملية تدوين اللغة وإنشاء قواعدها (Suleiman 2011)[١]. وإذ كان ابن خلدون على دراية جيدة بالأسباب غير اللغوية التي أدت إلى تدوين لغة مضر، فقد منحها قيمة محدودة في رؤيته "السوسيولسانية" الوسعى. وقد توصّل إلى إعادة التقييم هذه بطريقتين متميزتين: بإعلان أن معرفة العربية واستخدامها الصحيح ليسا من اختصاص العرب، بل يشترك فيهما أيضا المتحدثون من أصل غير عربي؛ بمنح حالة اللغة المستقلة (اللغة القائمة بذاتها) للأنواع التي كانت تعتبر تقليديا لغات محلية أو لهجية.

[١] في مقالة سليمان، أنظر بالأخص القسم المعنون بـ "التوحيد القياسي للغة: نظرية السببية وحكمة العرب" (*Language standardization: the theory of causation and the wisdum of Arabs*).

إن حالة مختلف الأصناف اللغوية التي تم تناولها تعيدنا إلى المسألة المصطلحية المذكورة بإيجاز في الصفحات السابقة: المعنى المنسوب إلى مصطلحي "لغة" و"لسان" حسب تكرارها في فصول الباب السادس. يستخدم الأول بشكل عام للتحدث عن اللغة كعادة / قدرة مكتسبة، وكذلك للدلالة على اللغات المتحدث بها من طرف العرب وغير العرب، واللغة الصافية الأصلية (لغة مضر)، والتي مع ذلك تسمى أيضا "اللسان المضري"، واللغات البدوية والحضرية التي تطورت نتيجة الاتصال بالشعوب الأجنبية، واللغات التي احتكت بها اللغة الأصلية (سواء كانت لغات الركيزة أو اللغات المتقاربة)؛ وأخيراً، نجده في عبارة "علم اللغة"، الذي عرفناه كعلم المعاجم. بالنسبة لمصطلح "لسان"، فهو يستعمل أحيانا بمعنى "لغة"، حينما يدل به على اللغة الأصلية للعرب ولغات غير العرب (وعلى هذا الحال بصيغته الجمعي "ألسن")؛ ويتعارض أحيانا مع كلمة "لغة"؛ وفي أحيان أخرى يستخدم معها؛ وغالبا ما يظهر بصيغة "لسان العرب" أو "اللسان العربي"، مثلا في "علوم اللسان العربي"، وفي حالة واحدة متبوع بالصفة "المدون". من الواضح أنه سيكون من المفيد إجراء دراسة إحصائية أكثر دقة، ولكن هذه المؤشرات الأولية تكفي بالفعل للإشارة بقدر من التقريب إلى القيمة الأساسية التي ينسبها ابن خلدون إلى المصطلحين[1]. بينما ترتبط اللغة بالمظاهر الملموسة، على الصعيدين الفردي والجماعي، المعتبرة بكل من إمكانياتها (القدرة والاستعداد للتحدث) وتحقيقاتها (التعبير عن المعاني من خلال المعجم والتركيب)، فإن اللسان يشير في أغلب الأحيان إلى النظام أو الهيكل اللغوي، أي مجموعة من الاستراتيجيات التواصلية، وتجميع من المبادئ والقواعد المرتبة في نموذج نظري. وباستخدامه هذا المصطلح بهذا المعنى، يبدو أن ابن خلدون أقرب إلى كلام الفلاسفة منه إلى كلام النحاة والعلماء المهتمين بشأن اللغات في القرون السابقة. على أي حال، وإن كان معنى "لغة" موجودا في كلمة "لسان" غالبا ، فإن من النادر أن يستخدم المصطلح الثاني وفقاً لمعنى الأول.

وليس من المعقول البحث عن دقة اللغويين وتماسكهم في صفحات المقدمة؛ ومع ذلك يمكننا أن نجد فيها انعكاسا أصليا يأخذ في الاعتبار وجهات نظر مختلفة ويقوم بدمجها بشكل فعال لصالح القارئ.

المصادر و المراجع:

ابن جني، أبو الفتح عثمان (١٩٥٢-١٩٥٦). الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار،ثلاثة مجلدات، القاهرة: دار الكتب المصرية.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (١٩٩٥). مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، صيدا – بيروت: المكتبة العصرية.

ابن الفارس، أبو الحسين أحمد (١٩٩٧). الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، علق عليه ووضع حواشيه أحمد حسن بسج، بيروت: دار الكتب العلمية.

السيوطي، جلال الدين (٢٠٠٦). الاقتراح في أصول النحو، ضبطه وعلق عليه عبد الحكيم عطية، راجعه وقدم له علاء الدين عطية، دمشق: دار البيروتي.

الفرابي، أبو نصر محمد (١٩٩٠). كتاب الحروف، حققه وقدم له وعلق عليه محسن مهدي، بيروت: دار المشرق.

[1] للمعاني التي ينسبها التراث النحوي العربي، انظر مدخلي "لسان" و"لغة" في موسوعة اللغة واللسانيات العربية (Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics).

References

Ahmad, Zaid (2003). *The Epistemology of Ibn Khaldūn*, London – New York: Routledge.

As-Suyuṭi, Jalal ad-Din (2006). *'Iqtirāḥ fī 'uṣūl an-naḥw, ed. by 'Abd al-Ḥakīm 'Aṭiyya, Dimašq: Dār al-Bayrūtī.*

Bagatin, Maurizio (2018). *Il Mi'at 'āmil fī an-naḥw di 'Abd al-Qāhir al-Ǧurǧānī. Un trattato didattico sugli operanti grammaticali in arabo*, Milano: FrancoAngeli.

Bohas, George-Guillaume, Jean-Patrick-Kouloughli, Djamel (1990). *The Arabic Linguistic Tradition*, Foreword by M.G. Carter, Washington: Georgetown University Press.

Bohas, Georges (2007). "Ibn Khaldoun et la situation linguistique du monde arabe à son époque: description et explication", in *Attarbiya wa ttakwin : revue marocaine de l'éducation et de formation* 2. 9- 23.

de Sacy, Antoine-Isaac Silvestre (1829). *Anthologie grammaticale arabe, ou morceaux choisis de divers grammairiens et scholiastes arabes*, Paris: Imprimerie Royale.

EALL, K. Versteegh (ed.). *Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics*, 5 voll., Brill, Leiden – Boston 2006-2009.

al-Farabi. (1990). *Kitāb al-ḥurūf*, éd. Muḥsin Mahdī, Bayrūt: Dār al-Mašriq.

Gutas, Dimitri (1998). *Greek Though, Arabic Culture. The Graeco-Arabic Translation Movement in Baghdad and Early 'Abbāsid Society (2nd-4th/8th-10th centuries)*, New York: Routledge.

Ibn Faris (1997). *). aṣ-Ṣāḥibī fī fiqh al-luġa al-'arabiyya wa-masā'ilihā wa-sunan al-'arab fī kalāmihā,* ed. by 'Aḥmad Ḥasan Basağ, Bayrūt: Dār al-kutub al-'ilmiyya.

Ibn Jinni, 'Abu al-Fatḥ 'Uthman. (1956-1952). *alxasāis*, ed. by Muḥammad 'Alī an-Naǧǧār, 3 vol., al-Qāhira: Dār al-kutub al-miṣriyya.

Ibn Khaldun, Abdulrahman ibn Muhammad (1995). *Muqaddimat Ibn Ḫaldūn,* éd. Darwīš al-Ǧawaydī, Sidon - Beirut: Modern Library.

Larcher, Pierre (2006). "Sociolinguistique et histoire de l'arabe selon la Muqaddima d'Ibn Khaldûn (VIIIe/XIVe siècle)", in P. Borbone, A. Mengozzi, M. Tosco (éds.), *Loquentes linguis. Studi linguistici e orientali in onore di Fabrizio A. Pennacchietti*, Wiesbaden: Harrassowitz. 425-35.

Larcher, Pierre (2007). "Les origines de la grammaire arabe, selon la tradition: description, interprétation, discussion", in E. Ditters and H. Motzki (éds), *Approaches to Arabic Linguistics*, Leiden – Boston: Brill. 113-134.

Larkin, Margaret (1982). "Al-Jurjani's Theory of Discourse", in Alif: *Journal of Comparative Poetics*, No. 2, Published by: Department of English and Comparative Literature, American University in Cairo. 76-86.

Larkin, Margaret (1995). *The Theology of Meaning. 'Abd al-Qāhir al-Jurjānī's Theory of Discourse*, New Haven, Connecticut: American Oriental Society.

Loucel, Henri (1963-64). "L'origine du langage d'après les grammairiens arabes I-IV", *in Arabica*, X. 188-208, 253-81. Arabica, XI. 57-72, 151-87.

Mahdi, Muhsin (2007). "Language and Logic in Classical Islam", in R. Baalbaki (éd.), *The Early Islamic Grammatical Tradition*, Aldershot: Ashgate Publishing. 135-67.

Rosenthal, Franz (1967). Ibn Khaldûn, *The Muqaddimah. An Introduction to History*, translated from the Arabic by Franz Rosenthal, 3 voll., London: Routledge & Kegan Paul. (first published 1958).

Rosenthal, Franz (2007). *Knowledge Triumphant. The Concept of Knowledge in Medieval Islam*, Leiden-Boston: Brill.

Rundgren, Frithiof (1976). "Über den griechischen Einfluss auf die arabische Nationalgrammatic", *in Acta Universitatis Upsaliensis* 2. 119-44.

Suleiman, Yasir (2011). "Ideology, Grammar-Making and the Standardization of Arabic", *in B. Orfali (éd.), In the Shadow of Arabic. The Centrality of Language to Arabic Culture*, Leiden – Boston: Brill. 3-30.

Versteegh, Kees (1977). *Greek Elements in Arabic Linguistic Thinking*, Leiden: Brill.

Versteegh, Kees (1997a.). *The Arabic Linguistic Tradition*, London – New York: Routledge.

Versteegh, Kees. (1997b.). *The Arabic Language*, New York: Columbia University Press.

HOW TO CITE THIS ARTICLE

Bagatin, M. & Bourouba, H. (2023). The Linguistic Variation According To Ibn Khaldūn. *LANGUAGE ART*, 8(1), 7-22., Shiraz, Iran. [in Arabic]

DOI: 10.22046/LA.2023.01

URL: https://www.languageart.ir/index.php/LA/article/view/304

Language Art, 8(1): pp. 7-22, 2023, Shiraz, Iran
DOI: 10.22046/LA.2023.01 DOR:
فصلنامه هنر زبان، دوره ۸، شماره۱، سال ۲۰۲۳، از صفحه ۷ تا ۲۲

تنوع زبانی از نظر ابن خلدون[۱]

مائوریتسیو باگاتین[۲]©

عضو هیئت علمی، گروه زبان‌های خارجی، ادبیات و فرهنگ، دانشگاه برگامو، ایتالیا.

حمید بوروبه[۳]

محقق ارشد تخصصی در حوزهٔ زبان‌شناسی گویشی (دیالکتولوژی)، مرکز تحقیقات انسان‌شناسی و تاریخ و ماقبل‌تاریخ، الجزایر.

(تاریخ دریافت: ۱۵ اردیبهشت ۱۴۰۱؛ تاریخ پذیرش: ۷ شهریور ۱۴۰۱؛ تاریخ انتشار: ۹ اسفند ۱۴۰۱)

ابن خَلدون در آخرین بخش‌های مقدمه، به برخی از مسائل کلی مرتبط با زبان‌ها می‌پردازد، و سپس با نوشتن طرح متفاوت از آنچه معمولاً صرف‌نویسان بیان می‌کنند، به زبان عربی می‌پردازد. در واقع، آنها به بازنمایی ایستا از واقعیت زبانی مقید هستند، که در نهایت تنها یک زبان را در بر می‌گیرد، زبان مبدأ، هماهنگ و کامل، که ویژگی متمایز آن «اعراب» است. هر چیز دیگری از نظر آنها فقط به عنوان یک شکل فاسد، بربریت آن زبان تلقی می‌شود. توجه به تغییرات تاریخی و اجتماعی، در عوض، به ابن خَلدون اجازه داد تا مدلی پویاتر را توسعه دهد که ایده تنوع را، نه تنها به طور همزمان، که برای دستورنویسان است، بلکه از نظر تاریخی نیز در بر می‌گیرد. در این مدل، ایده فساد یا آهنگ فقط آغاز یک فرآیند دگرگونی زبانی است که منجر به پیدایش حداقل سه نوع مستقل از زبان عربی شد که هر کدام ویژگی‌های خاص خود را داشتند.

واژه‌های کلیدی: مقدّمه ابن خَلدون، زبان عربی، تنوع زبانی، تماس زبان‌ها، عربی بادیه‌نشین و شهری، عادت زبانی، اعراب، فساد یا آهنگ، زبان (به معنای عضو گفتار)، زبان (به معنای سیسم ارتباطی).

---

[۱] این مقاله توسط م.باگاتین (۲۰۱۹). LA VARIATION LINGUISTIQUE SELON IBN ḤALDUN. در مجله رومانو-عربیکا، ۱۹(۱۹)، ۲۰۷-۲۲۲ به زبان فرانسه منتشر شده است و اکنون توسط حمید بوروبة با همکاری مولف به عربی ترجمه شده است.

© (نویسنده مسؤول)

[۲] Email: maurizio.bagatin@unibg.it

[۳] Email: bouroubahamid@gmail.com

Language Art, 8(1): pp. 7-22, 2023, Shiraz, Iran
DOI: 10.22046/LA.2023.01 DOR:
Article No.: 81.11.140111.724

TRANSLATED PAPER

The Linguistic Variation According To Ibn Khaldūn[1]

Maurizio Bagatin[2]
Faculty Member, Department of Foreign Languages, Literatures and Cultures, University of Bergamo, Italy.

Hamid Bourouba[3]
Senior researcher speciality: Dialectology, Prehistoric anthropological and historical research centre, Algeria.

(Received: 5 May 2022; Accepted: 29 August 2022; Published: 28 February 2023)

In the last sections of the introduction (Muqaddimah), Ibn Khaldūn deals with some general issues related to languages, then he focuses on the Arabic language by writing a different outline from the one grammarians usually give. As a matter of fact, they are bound to a static representation of the linguistic reality, which ultimately includes only one language, that of the origins, harmonious and perfect, whose distinctive feature is the ʾIʿrāb. Anything else is considered by them just as a corrupt form, a barbarization of this one language. The attention to historical and social changes, instead, allowed Ibn Khaldūn to elaborate a more dynamic model which embraces the idea of variation, not only synchronically, as it is for grammarians, also diachronically. Within this model the idea of corruption is just the beginning of a process of linguistic transformation that led to the appearance of at least three independent varieties of Arabic, each one with its own features.

Keywords: Ibn Khaldūn's Introduction, Arabic Language, Linguistic Variation, Contact of Languages, Bedouin and Urban Arabic, Linguistic Habit, ʾIʿrāb, Corruption or Incorrect Pronunciation, Tongue, Language.

---

[1] This paper has been published by Bagatin, M. (2019). LA VARIATION LINGUISTIQUE SELON IBN ḪALDUN. Romano-Arabica, 19(19), 207-222. In French language and has now been translated into Arabic language by Hamid Bourouba in collaboration with the author.

[2] Email: maurizio.bagatin@unibg.it © (Corresponding Author)
[3] Email: bouroubahamid@cnrpah.org